المحاضرة07: الظواهر السوسيولسانية

الهدف من هذا الدرس هو التعريف بمختلف الظواهر اللسانية الاجتماعية التي يمكن أن تسود مجتمعا من المجتمعات، فلا وجود لمجتمع أحادي اللغة، بل كلّ المجتمعات تكون إمّا مزدوجة اللغة، أو ثنائية اللغة، أو متعددة اللغات. وقبل استعراض هذه الظواهر، ينبغي تحديد بعض المصطلحات المرتبطة بها، منها: اللغة الأم، اللغة الثانية واللغات الأجنبية .

1 - اللّغة الأم (Langue maternelle) : اللغة الأمّ هي اللغة التي يصادفها الفرد في محيطه العائلي*، فيربط بها علاقات مع المحيطين به، وهي اللغة الأولى التي يكتسبها الإنسان في مرحلة الطفولة المبكرة، حيث يفهمها الطفل قبل دخوله المدرسة، ويتحدث بها في البيت مع أفراد عائلته، وهي كذلك اللغة التي يتحدث بها سكان البلد الذي يعيش فيه الشخص. واللّغة الأم بالنّسبة للجزائريّين هي تلك اللّهجات التي اكتسبوها بقدرة فطرية وارتبطوا بها، وتعوّدوا على ممارستها بكل عفوية .

وتُكتسب اللّغة الأمّ داخل الأسرة أوّلا، وبطريقة آلية لا شعورية، حيث يأخذ الطفل الألفاظ والبنى اللّغوية البسيطة بعفوية قبل أن يضبط المفاهيم والتّصورات الدقيقة، فيبني من خلال تفاعله مع الجماعة اللغوية نظاما نحويا مجرّدا يمكّنه من معالجة الملفوظات وإنتاجها، فتترسّخ في ذهنه البنيات الأساسية للّغة دون تلقين خارجيّ.

2- اللّغة الثانية :(L. seconde) هناك من يعرّف اللغة الثانية بأنّها «اللغة التي يتعلّمها الأجنبي في بلدها الأصلي بعد أن يكتسب لغته الأمّ، كالناطق بالإندونيسية الذي يتعلّم اللغة العربية في مصر

---

* وليس شرطا أن تكون اللغة الأمّ بالنسبة للفرد هي لغة المجتمع الذي ينتمي إليه أبواه وأجداده، حيث يستطيع كلّ طفل أن يتقن أيّ لغة في العالم حتّى تصبح لغته أمّ، بشرط أن يتربّى في تلك البيئة منذ الصّغر على مستوى الأسرة ثمّ المجتمع ككلّ، لأنّ اللّغة الأمّ في حياة الفرد ليست بالضرورة لغة المجتمع الذي تنتسب إليه أسرته. وتحمل اللغة الأمّ مقومات الشّخصية، والمبادئ الوطنية، والأسس الثقافية للبلاد.

أو السودان، فاللغة العربية عنده هي اللغة الثانية، وقد تُطلق اللغة الثانية على اللغة شبه الرسمية في الدّولة، كاللغة الإنجليزية في نيجيريا والهند، واللغة الفرنسية في بعض الدول الإفريقية، فاللغة الثانية بهذا المفهوم هي التي يتعلّمها الفرد في بيئتها، كالعربي الذي يتعلّم الإنجليزية في بريطانيا أو الولايات المتّحدة الأمريكية، أو حيث تكون هذه اللّغة مستعملة في وطن الدّارس استعمالا واسعا في التّعليم والإدارة الحكومية، وفي مجالات الأعمال (كالإنجليزية في الهند، والعربية في الجزائر والمغرب) .

3- اللغات الأجنبية (L. étrangère) : هي «اللغة التي يتعلّمها الأجنبيّ في غير موطنها الأصلي، كالعربية يتعلمها الإندونيسي في إندونيسيا، أو ماليزيا، والإنجليزية يتعلّمها السعودي أو المصري في المملكة العربية السعودية»، فمصطلح اللغة الأجنبية يُطلق على أيّ لغة يتعلّمها الفرد في بيئته (كالإنجليزية والفرنسية في البلدان العربية...) وتختلف درجة التّفاعل الثّقافي في كلّ من اللغة الثانية واللّغة الأجنبية .

4- الأحادية اللغوية (Monolinguisme ou unilinguisme) : يشير هذا المفهوم إلى «حقيقة التّحدّث بلغة واحدة فقط (...) ويمكن وصف الأفراد والمجتمعات بأنّها أحادية اللغة (على النقيض من ثنائية اللغة، متعدّدة اللغات) وقد يشير إلى درجة من التجانس الذي لا وجود له في الممارسة العملية (...) تُتّخذ الأحادية اللغوية على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الولايات في بعض الأحيان كقاعدة (على سبيل المثال: في السياسة اللغوية، والتّخطيط اللغوي).

فالأحادية اللغوية تعني استخدام لغة واحدة، والشخص أحادي اللغة هو الشخص القادر على التّحدث بلغة واحدة فقط، وقد يُقصد بهذا المفهوم اعتماد بلد معيّن لغة واحدة كلغة رسمية، أو بالأحرى اعتراف بلد ما بلغة واحدة فقط كلغة رسمية، وهذا هو المقصود في الأعلى باتّخاذ الأحادية اللغوية أحيانا كقاعدة في السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي.

5- الازدواجية اللّغوية (Diglossie): هي تعايش نظامين لغويين في مجتمع معيّن، وهما مختلفان لكنهما متقاربان لأنّهما ينحدران من أصل واحد، لكن لكلّ منهما وظائف اجتماعية محدّدة، وأحد النّوعين رفيع (خاص بالحالات الرسمية الجدة) والآخر وضيع (خاص بالحالات غير الرسمية

الأخرى) كاللغة العربية الفصحى واللهجات العربية في المجتمع الجزائري (والعالم العربي بصفة عامة).

ظهر مصطلح (Diglossia) في علم اللغة الاجتماعي على يد اللساني الاجتماعي الأمريكي شارل فيرڤسون (CH. Fergusson) سنة 1959، حين كان يصف الوضع اللغوي في اليونان، والعالم العربي، وسويسرا الناطقة بالألمانية، وجزيرة هايتي (التي تتكلم لغة الهجين) ، حيث سعى هذا العالم إلى تحديد الخصائص الأساسية والمشتركة بين الأشكال اللغوية للغات التي تستخدمها المجتمعات الأربعة السابقة، وذلك من حيث التراكيب اللغوية، والوظيفة، والمنزلة لدى متحدثيها، إذ يسود كلّ مجتمع من هذه المجتمعات تنوعان لغويان متميّزان من اللغة نفسها، أحدهما يتمثّل في اللغة الفصحى التي تُستعمل في المناسبات الرسمية، تتميّز بالتنظيم الدقيق والنحو المعقد والأدب المحترم المكتوب، وتُستعمل في التعليم، والآخر يتمثّل في اللغة التي تُستعمل في الحياة اليومية العادية.

ويؤكّد أندري مارتيني أنّ «الازدواجية توجد في كلّ المجتمعات، حتى تلكم التي نعتبرها مجتمعات أحادية اللغة(Unilingue) ، فهناك دائما درجة من الازدواجية لأنّه ليس هناك تطابق بين الاستعمال اليومي والشّكل الرسمي» ، يعني أنّ هذه الظاهرة تشمل عددا كبيرا من لغات العالم، لكن بدرجات متفاوتة، ممّا جعل بعض اللغويين يميّزون بين «الازدواجية القوية وبين الازدواجية الضعيفة. فالازدواجية القوية تحصل عند وجود اختلاف بين اللغة ولهجاتها إلى درجة تجعل المتكلمين واعيين بهذا الاختلاف، فيحددون اسم كلّ منوّعة ومجالات استعمالها، أمّا الازدواجية الضعيفة فتحصل عندما يفقد المتكلمون هذا الوعي فيتحدثون عن لغة واحدة» .

- **شروط تحقيق الازدواجية:** يشترط (فرقيسون) مجموعة من المعايير (أو السمات) التي يجب أن تتوفر في لغة المجتمع كي يتمّ اعتبار الوضع اللغوي في ذلك المجتمع صالحا لوصفه بازدواجية اللغة، تتمثّل هذه المعايير فيما يلي:

*ينتمي الصنفان إلى اللغة نفسها، لكن البنية النّحوية للّغة الرّفيعة أكثر تعقيدا منه بكثير في اللّغة الوضيعة، أمّا من النّاحية الصّوتية والمعجمية فبينهما تطابق متعدّد (معيار لغوي) .

*اللّغة الرّفيعة تتّسم بالنّفوذ، وهي ذات مكانة مرموقة بالمقارنة إلى الصنف الوضيع، وتتمتع بمقام عال، في حين يُنظر للهجة على أنّها انحراف عن معايير اللغة الرفيعة (المنزلة)

*اللغة الرفيعة هي لغة التّعليم والمعاملات الرسّمية والطّقوس الدّينية، ولغة الآداب المكتوبة والتي تعود إلى حقبة زمنية بعيدة، أمّا اللّغة الوضيعة فهي لغة التداول اليومي ممّا يكسبها سمة (اللّغة الوضيعة) وهي لغة الأحاديث الحميمية، والآداب الشفوية الشعبية (الوظيفة)

*تستمر حياة اللّغة الرّفيعة إلى جانب اللّغة الوضيعة لعدة قرون، وتنتمي هاتان اللّغتان إلى السّلالة اللّغوية نفسها (شرط الثبات والاستقرار)

*الشكل الوضيع يُكتسب في المحيط العائلي والاجتماعي بطريقة طبيعية، أمّا الصنف الرفيع، فيُعلّم رسميا في المدارس (الاكتساب والتعلم) .

*أن يكون الصنف الرفيع قد أنتج رصيدا أدبيا معتبرا، مما يضع الشكل اللغوي الرفيع محل التقدير والاحترام، والصنف الوضيع ينتج أدبا شعبيا وهو يمثل أدبا حقيقيا جديرا بالدراسة والتحليل.

ويُقصد بالفرد مزدوج اللغة الشخص الذي يملك أدنى كفاية باللغة الثانية (أي المستوى الرفيع الذي يتعلّمه في المدرسة) إلى جانب كفايته باللغة الأمّ التي يكتسبها في محيطه العائلي، فاللغة الفصحى بالنسبة للطفل الجزائري هي لغته الثانية التي يكتسبها في المدرسة، إلى جانب العامية التي يكتسبها في البيت.

6- الثنائية اللغوية (Bilinguisme): فالثنائية اللغوية هي تعايش لغتين مختلفتين كلّ الاختلاف في مجتمع من المجتمعات، فيكون الفرد ثنائي اللغة إذا اتقن لغتين اتقانا جيدا وتمكّن من التواصل بهما، ويكون المجتمع ثنائي اللغة إذا اتقن **معظم** أفراده اللغتين، ويقدرون على توظيفهما بالتناوب حسب مواقف وسياقات التواصل، والفرد الثنائي اللغة لا بد أن يستعمل اللغتين بالكفاءة نفسها.

- **الثنائية اللغوية الفردية والاجتماعية:** عند الحديث عن الفرد ولغته، فتتمّ الإشارة إلى الثنائية اللغوية الفردية (تدخل ضمن الظواهر الفردية الأخرى كالذكاء والقدرة اللغوية والتحصيل)، وتدعى بالثنائية الفردية .(Bilinguisme individuel) أماّ إذا تعلق الأمر بالجماعة أو المجتمع،

فتسمى حينئذ الثنائية اللغوية المجتمعية .(Bilinguisme du groupe ou du société) والفرق بينهما هو أنّ الثنائية الفردية تشير إلى أنّ الفرد يستعمل لغتين، لكن الثنائية المجتمعية تشير إلى وجود لغتين مستعملتين في المجتمع (فهناك أفراد يتقنون اللغة الأولى فقط، وآخرون يتقنون الثانية فقط، وهناك أفراد يتقنون إحدى اللغتين جيّدا ويتقنون الثانية قليلا، ...الخ)، لكن الثنائية المجتمعية تستدعي وجود عدد لا بأس به من أفراد ثنائي اللغة، وإلاّ لن يتحقق التفاهم بينهم.

- **درجات إتقان الثنائية اللغوية**: يلخّص محمد علي الخولي درجات الثنائية اللغوية على النحو التالي :

*الثنائية الصفرية: وهي حالة انعدام المعرفة باللغة، مثل الرضيع الذي لم يكتسب بعد أيّ لغة.

*الثنائية الابتدائية: وهي حالة اتقان اللغة الأولى والشروع في اتقان اللغة الثانية.

*الثنائية النصف لغوية: هي حالة الضعف في اللغة الأولى واللغة الثانية، بسبب نسيان جزء من اللغة الأولى، مع محاولة اتقان اللغة الثانية.

*الثنائية المتوازنة: وهي حالة إتقان اللغة الأولى والثانية بشكل مماثل.

*الثنائية المثالية: هي حالة اتقان مهارات اللغتين الأولى والثانية، وتوظيفهما بشكل جيّد.

عوامل انتشار ظاهرة الثّنائية اللّغوية:

أ- الاستعمار: ينجم عن الاحتكاك الطويل بين المستعمر وسكان البلد المحتلّ احتكاك في اللّغة وفرض المستعمر لغته على المحتلّين في مختلف مجالات الحياة، بما في ذلك التعليم، ممّا يؤدي إلى ظاهرة الثنائية اللّغوية، وتصبح لغة المستعمر بعد الاستقلال اللغة الثانية للبلد المحتل، وتحتلّ مكانة مرموقة في المجال الثقافي والاقتصادي والتربوي، وكثير من البلدان تختارها كلغة رسمية .

ب - الهجرة: تؤدي الهجرة إلى الدول الأجنبية إلى الاحتكاك بين المهاجرين وسكان البلد المهاجر إليه، البلد المهاجر إليه، وحين تحافظ المجموعات المهاجرة على لغاتها وتقاليديها وثقافتها، يؤدي ذلك إلى نشر لغاتها، ممّا يولّد الثنائية اللغوية .

ج - العلاقات الخارجية: يؤدي تبادل العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية إلى الاحتكاك بين الدّوّل وذلك يؤدي إلى الاحتكاك اللغوي، وهذا ما حقّق للإنجليزية الانتشار والشيوع والهيمنة الاقتصادية، حتى أصبحت لغة ثانية لكثير من الدول، كالهند وغانا...الخ.

7- التعدد اللغوي (plurilinguisme): يعتني علماء اللّغة الاجتماعيون بالمجتمعات المتسمة بثنائية وتعدد لغاتها، نظرا لكون هاتين الظاهرتين من أبرز المظاهر اللغوية الشاهدة على التنوع اللّغوي الجدير بالعناية والاهتمام، وتشكّل الثنائية اللغوية والازدواجية، إلى جانب كلّ التنوّعات التي يمكن أن تسود مجتمع معيّن، مظاهر أساسية للتعدّد اللغوي، ولا يوجد أيّ بلد أحادي اللغة بالمفهوم الحقيقي للمصطلح، رغم أنّ هناك دوّل كثيرة تسعى لتطبيق سياسة لغوية تستهدف تأسيس مبدأ أحادية اللغة، لكن لا يمكن تجنب مختلف أشكال المزج بين الحدود اللغوية والجغرافية لتلك الدول، ولا وجود لدولة لا يستعمل معظم سكانها أكثر من لغة واحدة.

و"التعدّد اللغوي"، يعني استخدام عدة لغات وعدة تنوّعات من قِبل أفراد أو جماعة لغوية معيّنة، أو بالأحرى هي «تعايش لغات وطنية متباينة في بلد واحد»، كتعايش العربية (الفصحى واللهجات) والفرنسية والأمازيغية في الجزائر.

- أسباب التعدّد اللغوي: للتّعدد اللّغوي أسباب وعوامل كثيرة، أبرزها:

- **عامل الاستعمار:** وهو أقوى أسباب التّعدّد اللغوي وأبرزها، لأنّ لغة الاستعمار هي لغة القوة والنّفوذ، فإنّها غالبا ما تهيمن على لغة الهوية، وتهمّشها، لتحوّلها إلى لغة ذات وظائف محدودة، سعيا إلى تهميشها تدريجيا في المراحل اللاحقة. ، كما يفرض الاستعمار سياسة التقسيم في البلدان المحتلّة، وهي السياسة التي فرضتها أوروبا على دول إفريقيا خلال القرن 19، وكان نتيجة ذلك تعدّد لغات تلك البلدان بعد الاستقلال، وهذا ما يُفسّر وجود اللغة الفرنسية، والإنجليزية، والاسبانية، والبرتغالية في كلّ مناطق العالم، مقارنة باليابانية التي لا وجو د لها إلاّ في اليابان.

وتسعى الكثير من الدول المحتلة، بعد الاستقلال، إلى إصلاح وضعها اللغوي، وردّ الاعتبار للغتها (أو لغاتها) الاصلية، مثل الجزائر التي تسعى جاهدة لاسترجاع اللغات الوطنية (العربية والأمازيغية) مكانتها، بعد هيمنة اللغة الفرنسية على كلّ مجالات حياة الجزائريين

- **الهجرة: أحسن مثال على ذلك** "الولايات المتحدة" التي تعتبر من الدّول الأكثر استقطابا للهجرة الاختيارية، تطورت بشكل مذهل مكوّنة بذلك مجتمعا يتسم بالتّعدّد اللّغوي، فهي تسعى إلى تجميع عدد هائل من المهاجرين، فهناك منهم من يتكيف مع البيئة ويتعلّم الإنجليزية، والكثير منهم يحافظ على لغاته الأصلية، أضف إلى ذلك الشعور بالوعي العرقي بين الجاليات المختلفة، مما يدفع كلّ جالية إلى الحفاظ على لغتها، وذلك كلّه يؤدي إلى التّعدّد اللغوي .

- **العامل الديني**: للجانب الدّيني دور في التّعدد اللّغوي، حيث أصبح العديد من الدول غير العربية، مثلا، متعدّدة اللغات بعد دخولها في الإسلام، فهناك دول إفريقيا تمّ تعريبها وأصبحت العربية لغاتها الثانية، كدول شمال إفريقيا، حيث حلّت اللهجات العربية محل اللهجات الأمازيغية في معظم مناطقها، وهناك مناطق أخرى تمّ تعريبها بعد الإسلام، لكنها حافظت على لغاتها الأصلية، كالأكراد في تركيا وفي العراق، والأقباط في مصر، والأمازيغ في المغرب والجزائر، وقد تولّد عن هذا المزج اللغوي تعدّد التنوّعات اللغوية في اللهجات العربية.

- **العامل التربوي:** يميل الكثير من الدول إلى إدماج بعض اللغات الأجنبية في مدارسها منذ المراحل الأولى من التعليم الابتدائي، كإدماج الجزائر للغتين الفرنسية والانجليزية في مرحلة التعليم الابتدائي، فالمتوسط والثانوي، إلى غاية التعليم الجامعي، كما تدمج معظم الدول العربية (مصر، الأردن...) اللغة الإنجليزية منذ التعليم الابتدائي، ويؤدي اتقان الفئة المثقفة للغات الأجنبية وتوظيفها في مواقف مختلفة إلى التعدّد اللغوي.

وقد يكون التعدّد اللغوي في البلد الواحد سببه هو تعدّد الأعراق فيه، مثل وضع (أثيوبيا) التي يوجد فيها أكثر من (100) لغة، وفي هذه الحالة، تعمل هذه الدّوّل على الاحتفاظ بلغات المستعمِر تجنبا للصراعات العرقية .

يتسم التعدّد اللغوي في بعض البلدان بالاستقرار وتعايش اللغات، وفي دول أخرى يؤدي إلى الصراع اللغوي الذي ينتهي بهيمنة لغة معيّنة وفرض استخدامها على الناطقين، كما يؤدي ذلك إلى القضاء على اللغة المغلوبة وانحلالها، وكثيرا ما يكون نتيجة هذا التّعدد والصّراع تهديد البنية الاجتماعية.